مسابقة اقرأ القرآنية 13

الآيات 1 – 4

﴿الر كِتَبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ 1 أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ إِنَّنِى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ 2 وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ 3 إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ 4﴾

التفسير

الاصول الاربعة في دعوة الأنبياء:

تبدأ هذه السورة ـ كما في بداية السورة السابقة وسائر سور القرآن ـ ببيان أهمية الكتاب العزيز المنزل من السماء، ليلتفت الناس إلى محتوياته أكثر ويتفكروا فيه بنظرة أدق.

وذكر الحروف المقطعة (الر) ـ نفسه ـ دليل على أهمية هذا الكتاب السماوي العزيز الذي يتشكل من حروف بسيطة معروفة للجميع مثل الألف واللام والراء(الر) [1] مع ما فيه من عظمة وإعجاز بالغين، ثمّ يبيّن بعد هذه الحروف المقطعة واحدة من خصائص القرآن الكريم في جملتين.

أوّلا: إنّ جميع آياته متقنة ومحكمة (كتاب أُحكمت آياته).

وثانياً: إنّ تفصيل حاجات الإنسان في حياته الفردية والإجتماعية ـ مادية كانت أو معنوية ـ مبيَّن فيها أيضاً (ثمّ فُصِّلَتْ).

هذا الكتاب العظيم مع هذه الخصيصة، من أين أُنزل، وكيف؟!

أُنزل من عند ربّ حكيم وخبير (من لدن حكيم خبير).

فبمقتضى حكمته أُحكمت آيات القرآن، وبمقتضى أنّه خبير مطلع بيّن آيات القرآن في مجالات مختلفة طبقاً لحاجات الإنسان، لأنّ من لم يطلع على تمام جزئيات الحاجات الروحية والجسمية للإنسان لايستطيع أن يصدر احكاماً جديرة بالتكامل.

الواقع، إنّ كل واحدة من صفات القرآن التي جاءت في هذه الآية تسترفد من واحدة من صفات الله.. فاستحكام القرآن من حكمته، وشرحه وتفصيله من خبرته.

وفي بيان ماهو الفرق بين (أُحكمت) و (فُصلت) بحث المفسّرون كثيراً وأبدوا احتمالات عديدة.. وأقرب هذه الإحتمالات ـ بحسب مفهوم الآية آنفة الذكر ـ هو أنّ الجملة الأُولى تعني أنّ القرآن مجموعة واحدة مترابطة كالبنيان المرصوص الثابت، كما تدل على أنّه نازل من إله فرد، ولهذا فلايوجد أي تضادٍّ في آياته، ولا يُرى بينها أي اختلاف.

والجملة الثّانية إشارة إلى أنّ هذا الكتاب في عين وحدته فيه شعب وفروع متعددة تستوفي جميع حاجات الإنسان الرّوحيّة والمادية، فهو في عين وحدته كثير، وفي عين كثرته واحد!.. وفي الآية التالية يُبيّن أهم مايحتوية القرآن وما هو أساسه وهو التوحيد والوقوف بوجه الشرك (ألاّ تعبدوا إلاّ الله) [2] وهذا أوّل تفصيل لمحتوى هذا الكتاب العظيم.

والثّاني من محتويات الدعوة السماوية: (أنّني لكم منه نذير وبشير).. نذير لكم من الظلم والفساد والشرك والكفر، وأُحذركم من عنادكم وعقاب الله لكم!

وثالث ما في منهج دعوتي إليكم هو أن تستغفروا من ذنوبكم وتطهروا أنفسكم من الأدران: (وأن استغفروا ربّكم).

ورابعها هو أن تعودوا إلى الله بالتوبة، وأن تتصفوا ـ بعد غسل الذنوب والتطهر في ظل الإستغفار ـ بصفات الله، فإنّ العودة إليه تعالى لا تعني إلاّ الإقتباس من صفاته (ثمّ تُوبوا إليه).

في الواقع إنّ أربع مراحل من مراحل الدعوة المهمّة نحو الحق سبحانه بُيّنت في أربع جمل وفي أربعة أقسام، فقسمان يتضمنان الجانب "العقيدي" والأساسي.

وقسمان يتضمنان الجانب "العملي" والفوقاني.

فقبول أصل التوحيد ومحاربة الشرك، وقبول رسالة النّبي محمّد (ص) أصلان اعتقاديان، والتطهّر من الذنوب والتخلّق بالصفات الإلهية ـ اللذان يحملان معنى البناء بتمام معناه ـ أمران عمليان حضّ عليهما القرآن، وإذا تأملنا بدقّة في الآيات الكريمة وجدنا أن جميع محتوى القرآن يتلخص في هذه الأُصول الأربعة.. هذا هو الفهرس لجميع محتوى القرآن، ولجميع محتوى هذه السورة أيضاً.

ثمّ تبيّن الآيات النتائج العملية لموافقة هذه الأصول الأربعة أو مخالفتها بالنحو التالي (يمتعكم متاعاً حسناً) فاذا عملنا بهذه الأُصول فإنّ الله سبحانه يهبنا حياة سعيدة إلى نهاية العمر، وفوق كل ذلك فإنّ كُلاً يُعطى بمقدار عمله ولا يهمل التفاوت والتفاضل بين الناس في كيفية العمل بهذه الأصول... (ويؤت كل ذي فضل فضله) وأمّا في صورة المخالفة والعناد فتقول الآية: (وإن تولوا فإنّي أخاف عليكم عذاب يوم كبير) حين تمثلون للوقوف في محكمة العدل الإلهي.

واعلموا أنَّ (إلى الله مرجعكم) كائنا من كنتم، وفي أي محل ومقام أنتم، وهذه الجملة تشير إلى الأصل الخامس من الأصول التفصيليّة للقرآن وهي مسألة "المعاد والبعث" ولكن لاتتصوروا ـ أبداً ـ أن قدرتكم تعدّ شيئاً تجاه قدرة الله، أو أنّكم تستطيعون الفرار من أمره ومحكمة عدله.. ولا تتصوروا ـ أيضاً ـ أنّه لا يستطيع أن يجمع عظامكم النخرة بعد الموت ويكسوها ثوباً جديداً من الحياة.. (وهو على كل شيء قديرٌ).

علاقة الدين بالدنيا:

مايزال الكثير يظنون أن التدين هو العمل لعمارة الآخرة والسعادة بعد الموت، وأنّ الأعمال الصالحة هي الزاد والمتاع للدار الآخرة.. ولا يكترثون أبداً بأثر الدين الأصيل في الحياة الدنيا على حين أن الدين الصحيح في الوقت الذي يعمر الدار الآخرة يعمر "الدنيا" أيضاً.. وطبيعي إذا لم يكن للدين أي تأثير على هذه الحياة الدنيا فلا تأثير له في الحياة الأُخرى أيضاً.

والقرآن الكريم يتعرض لهذا الموضوع بصراحة في آيات كثيرة، وربّما يتناول أحياناً الجزئيات من هذه المسائل، كما ورد في سورة نوح (ع) على لسان هذا النّبي العظيم مخاطباً قومه (فقلتُ استغفروا ربّكم إنّه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً يمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) [3].

ويفهم البعض أنّ صلة هذه المواهب المادية في الدنيا مع الإستغفار والتطهر من الذنوب معنوية وغير معروفة، في حين أنّه لا دليل على ذلك، بل الصلة بينهما ظاهرة معروفة.

فأي أحد لا يعلم أن الكذب والسرقه والفساد تهدم العلاقات الإجتماعية؟

وأي أحد لايعلم أن الظلم والتبعيض والإجحاف تجعل من حياة الناس جحيماً وتكدر صفوهم؟!

وأيّ أحد يشك في حقيقة أن قبول أصل التوحيد وتكوين مجتمع توحيدي على أساس قيادة الأنبياء، وتطهير المجتمع من الذنوب والآثام، والتحلّي بالقيم الإنسانية - وهي الأصول الأربعة ذاتها التي أُشير إليها في الآيات المتقدّمة - يسير بالمجتمع البشري نحو هدف تكاملي أفضل، ويخلق محيطاً آمناً عامراً بالصفاء والحرية والصلاح؟

وعلى هذا الأساس نقرأ بعد هذه الأُصول الأربعة في الآيات المتقدمة قوله تعالى: (يمتعكم متاعاً حَسَناً إلى أجل مُسمّى).

الآية 5

﴿أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ 5﴾

التّفسير

اختلف بعض المفسّرين في شأن نزول الآية، فقيل أنّها نزلت في أحد المنافقين واسمه "الأخنس بن شريق" الذي كان ذا لسان ذلق ومظهر جميل، وكان يُبدي للنّبي (ص) الحب ظاهراً لكنّه كان يخفي العداوة والبغضاء في الباطن.

كما نُقل عن جابر بن عبدالله الأنصاري عن الإمام محمّد بن علي الباقر (ع) أنّها نزلت في جماعة من المشركين، حيث كانوا حين يمرون بالنّبي (ص) كانوا يطأطئون برؤوسهم ويستغشون ثيابهم لئلا يراهم النّبي (ص).

ولكن الآية تشير - على العموم - إلى أحد الأساليب الحمقاء التي كان يتبعها أعداء الإسلام والنّبي (ص) وذلك بالإستفادة من طريقة النفاق والإبتعاد عن الحق، فكانوا يحاولون أن يخفوا حقيقتهم وماهيتهم عن الأنظار لئلا يسمعوا قول الحق.

لذلك فإنّ الآية تقول: (ألا إنّهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه).

ومن أجل أن نفهم الآية فهماً دقيقاً ينبغي أن تتضح لنا كلمة "يثنون" بجلاء فهي من مادة "ثني" وهي في الأصل تعني ضم أقسام الشيء بعضها إلى بعض، فمثلا في طي قطعة القماش والثوب يقال "ثنى ثوبه" وإنّما يقال للشخصين على سبيل المثال: إثنان، فلأجل أن انضمّ واحد إلى جانب الآخر، ويقال للمادحين "مثنون" كذلك، لأنّهم يعدون الصفات البارزة واحدة بعد الأخرى.

وتعني الإنحناء أيضاً، لأنّ الإنسان بعمله هذا وهو الإنحناء يقرّب أجزاء من جسمه بعضها إلى بعض.

وتأتي هذه المادة بمعنى أن تجد العداوة والبغضاء والحقد طريقها إلى القلب أيضاً.. لأنّ الإنسان بهذا العمل يقرب عداء الشخص - أو أيّ شيء آخر - إلى القلب، ومثل هذا التعبير موجود في الأدب العربي إذ يقال: "اثنونى صدره على البغضاء" [1].

ومع الأخذ بنظر الإعتبار بما ورد آنفاً من معان لمادة "ثني" فلا يبعد أن تكون كلمة "يثنون" مشيرة إلى كل عمل خفي - ظاهري وباطنيّ - قام به أعداء النّبي (ص) ، فمن جهة يُضمرون العداوة والبغضاء في القلوب ويبدون المحبّة في لسان ذلق جميل!

ومن جهة أُخرى يقربون رؤوسهم بعضها إلى بعض عند التحدث، ويثنون الصدور ويستغشون الثياب، لئلا تنكشف مؤامراتهم وأقوالهم السيئة ويطّلع أحد على نياتهم.

لذلك فإنّ القرآن يعقّب مباشرة: أن أحذروهم، فإنّهم حين يستخفون تحت ثيابهم فإنّ الله يعلم ما يخفون وما يعلنون.. (إلا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنّه عليم بذات الصدور).